ودائع الله (*) !!!

(١)

من يتأمل الإسلام ، يرى أنه قد فتح أبوابه ومد باحته للبسطاء ، كما فتحها ويفتحها لجميع خلق الله .. ويرى أنه قد عنى بالبسطاء ، وهم عموم كتلة البشر ، لأنهم خلصاء الله وودائعه ، وقادرون دون حواجز أو تعقيد ـ على سلوك الاتجاه إلى الله والمحافظة عليه .. فى باحة الإسلام يتوجه الإنسان بوجهه وروحه شطر الذى فطره .. ويتوجه إليه سبحانه بالنظر فى عباده ومخلوقاته .. وفى أغلى عباده عليه وهم الضعفاء .. متحل بسجية الإحسان التى لم تقتصر على أحد ، أو تؤثر ذوى قرابة أو جاه أو سلطان ، وإنما تمتد لتشمل كل ضعيف ألم به ضعف بسبب الخلقة أو الفقر أو الوهن أو المرض أو السن أو العجز أو السفر أو الضيق أو الهم أو الكرب أو الحاجة أو العوز أو الأسر ..

يقول الله عز وجل : « وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا » (النساء ٣٦) ، ويقول جل شأنه : « وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ

(*) المال ٢٠١٢/١٠/٢

مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (النور٢٢) ، ويقول فى وجوه البر : « لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ » .. (البقرة ١٧٧) ، ويوصى نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام فيقول له فى وصية جامعة :

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » (الكهف ٢٨) .

يفهم المسلم من هذه الآيات ، ومن غيرها ، أن الله تعالى قد أوصى عباده بالضعفاء ، وأنهم ودائعه سبحانه لدى كل مؤمن .. وجعلهم - عز وجل - أمانة وعهدة فى عنق كل مسلم قادر على عونهم ومساعدتهم وجبرهم وحمايتهم ورعايتهم وكف الظلم عنهم والاهتمام بهم والمبالاة بأمورهم وبذل كل ما فى الوسع إليهم ..

فى عنايته عز وجل بالضعفاء ، وودائعه الذين أوصى بهم عباده ، نهى - سبحانه - عن البغى ، فقال : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ » (الشورى ٤٢) ، وقال نبى الرحمة : « إن الله أوصى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد » (رواه مسلم) .. وقال ﷺ : « مامن ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة - من البغى وقطيعة

الرحم » ! وقد أخبر سبحانه وتعالى فى قرآنه المجيد أنه خسف بقارون الأرض حين بغى على قومه وتجبر ، فيقول عز من قائل : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ » إلى قوله : « خَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ » (القصص ٧٦ ، ٨١) .

ومن عناية الله تعالى بودائعه ، أن جعل الاستطالة على الضعفاء من الكبائر .. وقال أهل العلم فيما وردت به الآية ٣٦ التى مرت بنا من سورة النساء ، أنها قد جمعت إلى جوار من تتوجب العناية بهم ، كل من ألم به ضعف .. فالإحسان للوالدين لا يتجلى فقط فى الوفاء العام بحقوقهم والإحسان إليهم والقيام بحقهم ، وإنما تلفت آيات أخرى إلى ازدياد الحاجة إلى ذلك كلما هرما أو كبرا ووهنا وصارا أكثر حاجة إلى المزيد من الإحسان إليهما والبر بهما والعطف عليهما واللطف معهما ، فيقول عز وجل : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » (الإسراء ٢٣ ، ٢٤) ..

وذكرت الآية ٣٦ التى مرت بنا من سورة النساء ـ ذوى القربى واليتامى والمساكين ، فنوهت بذلك إلى جواب بر ذوى القربى وصلتهم والعطف عليهم ، والرفق باليتامى والحنو بهم وعليهم ، وبالإحسان إلى المساكين وبذل الود والمعروف إليهم ، وقيل إن العناية بالجار ذى القربى لأن حقه مضاعف قد جمع بين حق القرابة وحق الجوار ، ولم تدع الآية الجار الجنب ، وهو ما لا قرابة له ، فأوصت به فيمن أوصت ، وروت السيدة عائشة من حديث الرحمة المهداة عليه السلام : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه

سيورثه». وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « إن الجار ليتعلق بالجار يوم القيامة يقول يا رب أوسعت على أخى هذا وأقترت علىّ أمسى طاويًا ويمسى هذا شبعان ، لِمَ أغلق بابه عنى وحرمنى ما قد أوسعتَ به عليه » (أخرجه البخارى فى الأدب المفرد[١١١] عن ابن عمر) .. وقال ابن عباس ومجاهد ، إن الصاحب بالجنب هو رفيق السفر ، فله حق الجوار وحق الصحبة .. وفى الحديث : « الضعيف أمير الركب » ، أما ابن السبيل فهو الضعيف العابر الذى يجب معاونته إلى حيث يريد ، وأردفت الآية الكريمة بأن الله لا يحب من كان مختالًا فخورًا . فالاختيال غرور وتباهٍ يُبْدى أكثر ما يُبْدى للضعفاء والبسطاء الذين يفخر عليهم المختال بما لديه من مال وخير حرموا منه ، أو يفخر بما دان له وامتحنهم الله فيه !!

من تراب الطريق! (٦٣٢)

ودائع الله* !!!

(٢)

استغرقت سياسة الإسلام زمنًا حتى استطاعت القضاء على الرق، بتضييق أسباب الرق، وتوسعة أسباب العتق، ولم تنس فى رحلتها لتحقيق غايتها، أن هؤلاء من الضعفاء ومن ودائع الله لدى عباده .. وجاء عن النبى ﷺ فى شأن الرقيق : « من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » . وروى عن نبى الرحمة ﷺ : « كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملكه قوته ». وقيل فى تفسير قول الله عز وجل : « وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » (الأنعام ٣٨) ـ قيل إنهم يؤتى بهم يوم القيامة والناس وقوف فَيُقْضى بينهم .. وورد بالصحيحين من رواية أبى هريرة ـ قال رسول الله ﷺ : « عُذبت امرأة فى هرة ربطتها حتى ماتت جوعًا، لا هى أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض » . وهذا عام فى سائر الحيوان الذى يجب على الإنسان أن يرحم بكمه وعجزه وضعفه . وورد عن نبى الرحمة ﷺ ـ أنه لعن من اتخذ شيئا فيه روح ـ غرضًا أى هدفًا يرمى إليه، ونهى

(*) المال ٢٠١٢/١٠/٣

عن أن تحبس البهائم للقتل، فإن كانت من المصرح بقتله كالحية والعقرب والكلب العقور، وجب تجنب تعذيبها أو تحريقها بالنار .

روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « كنا مع رسول الله فى سفرة فانطلق لحاجته فرأينا حمرة (نوع من العصافير) معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت ترفرف، فلما رجع النبى ﷺ ورآها، سأل : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا عليها ولديها »، وروى أنه عليه الصلاة والسلام رأى قرية نمل محروقة، فنهى عن ذلك وقال لهم : « لا ينبغى لأحد أن يعذبها بالنار إلاّ ربها » .. فنهى بذلك عن القتل والتعذيب بالنار حتى فى القملة والبرغوث وغيرهما !

ونهى عليه الصلاة والسلام عن قتل الحيوان والطير عبثًا، وروى عنه ﷺ أنه قال : « من قتل عصفورًا عبثًا عج إلى الله يوم القيامة، وقال: يا رب سَلْ هذا لِمَ قتلنى عبثًا ولم يقتلنى لمنفعة » . ومن هذه السنن، كانت كراهة صيد الطير أمام فراخه، وكراهة ذبح الحيوان بين يدى أمه.

أما تضييق أبواب الرق فمشهور، فى القرآن المجيد وفى السنة النبوية، فقبل الإسلام كان الأسر والسبى من أبواب الرق الواسعة التى درج عليها الناس، ولم يكن للسبايا والأسرى أى حقوق، فكانوا يُقتلون أو يُستعبدون، فأوقف القرآن المجيد ذلك، وخير فى شأن الأسرى بين المنّ والفداء، وجعل المنّ سابقًا على الفداء، فقال عزّ وجلّ : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » (محمد ٤) .. وأضاف الأسير إلى من تجب لهم الصدقة والرحمة والإطعام .. فيقول عزّ وجلّ فى صفات المؤمنين :« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا»(الإنسان٨) .

وفى المقابل فتح الإسلام أبواب عتق وتحرير العبيد على مصراعيها فجعله كفارة للإفطار أو إفساد الصوم فى رمضان، وكفارة لليمين وفى الظهار وفى القتل الخطأ، كما جعله من مصارف الزكاة .

ففضلًا عن كون الإفطار فى نهار رمضان بلا عذر كبيرة من كبائر الذنوب، وتجب عنها التوبة الصادقة، فإن الإفطار يكون موجبًا للقضاء والكفارة، وجعل الإسلام الكفارة عتق رقبة عن كل يوم، وظلت هذه الكفارة سارية حتى سقط حكمها لسقوط محله الآن بزوال الرق، ومن ثم ينتقل المكفر عن ذنبه إلى الخصلة التالية وهى صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا .

وفى كفارة اليمين، يقول الله تعالى :« لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (المائدة ٨٩) .

و فى عتق الرقبة، ككفارة للظهار، يقول الحكم العدل :

« وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (المجادلة ٣، ٤) .

وفى عتق الرقبة ككفارة للقتل الخطأ، يقول اللطيف الخبير : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » (النساء ٩٢) .

وباب الزكاة فى الإسلام، باب واسع جدًا لرعاية وكفالة الفقراء والضعفاء وودائع الله، وخصتهم الآية من سورة التوبة ضمن مصارف الزكاة، فقالت : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (التوبة ٦٠) .. وجعلت الآية فك الرقاب وتحرير العبيد، مصرفًا من مصارف الزكاة إلى جوار الفقراء المساكين، وإلى جوار الغارمين الذين استغرقتهم الديون وأعجزتهم عن الوفاء بحاجاتهم الضرورية ، وإلى جوار ابن السبيل، وهو المسافر قديمًا الذى انقطع عن بلده وماله وأهله، ومثله اللاجئ الذى انقطع عن مورده بسبب خارج عن إرادته . وأنت لا يسعك إلاّ أن تتوقف متأملًا عند نص الآية :

« وفى الرقاب » .. فكان الإسلام بذلك هو أول من وضع سياسة وخطة ممنهجة لمحاربة الرق وتحرير العبيد، بأن خصص جانبًا من ميزانية المجتمع فى مصارف الزكاة لإلغاء الرق وتحرير الرقاب، فضلًا عن رعايته كل ودائع الله من الضعفاء والفقراء والمساكين .

أينما نظرت فى القرآن والسنة، ترى أن الضعفاء هم فى الإسلام ودائع الله، أوصى بهم تبارك وتعالى رسوله عليه السلام ، وأوصى بهم عباده، وأعطاهم نبى الرحمة « إمارة » معنوية متميزة حين قال : « الضعيف أمير الركب » .. والركب هنا معنًى ومجازًا، فيصدق على ما يضارعه، فى عناية لافتة بودائع الله الذين جعل الإسلام الرحمة بهم ورعايتهم ـ صراط التوجه إلى الله عز وجل .

من تراب الطريق! (٦٣٣)

ودائع الله* !!!
(٣)

انطلاقًا من ذات الاهتمام برعاية كل من به ضعف أو عوز أو وهن أو حاجة، نرى اهتمامًا بالغًا فى الإسلام باليتامى .. فهم فى مقدمة « ودائع الله » التى أوصى بها عباده .. فيوصى بهم رب العزة رسوله المصطفى ﷺ فيقول له «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ » (الضحى٩) ..

ويصف المؤمنين بأنهم من يطعمون الطعام على حاجتهم إليه لليتامى والمساكين والأسرى، فيقول عن صفاتهم :

« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » (الإنسان ٨)، ويوصى تبارك وتعالى بالإحسان إليهم، فيقول فى كتابه العزيز « وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ » (النساء ٣٦) .. وجعل سبحانه وتعالى نصيبا لهم فيما يفىء به على المسلمين، فقال عز من قائل :

« وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...» (الأنفال ٤١) .. وقال تعالى: « مَّا أَفَاء اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

(*) المال ٢٠١٢/١٠/٤

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ .. » (الحشر ٧).. وأمر عز وجل بإصلاحهم ومخالطتهم بالبر والعطف والحسنى، فقال:«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » (البقرة ٢٢٠) .. وأمر بإعطائهم حقوقهم ونهى عن أكل أموالهم أو إضافتها إلى مال من يقوم على رعايتهم، فقال تعالت حكمته : « وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا » (النساء ٢)، وأوصى بتربيتهم على إدارة أموالهم توطئة لبلوغهم الرشد، وبالتعفف عن الطمع فيهم، فقال عز من قائل : « وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا » (النساء ٦)، وقال: « وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » (الأنعام ١٥٢)، وأوصى برعاية اليتامى من النساء ونهى عن استغلال ضعفهن، فقال جل شأنه : « وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا » (النساء ١٢٧) .. وفى هذه الآية روت السيدة عائشة رضى الله عنها أن الأولياء كانوا يرغبون فى نكاح اليتيمة التى فى حجرهم رغبة فى مالها وجمالها بأدنى مما يتوجب أداؤه لهن من صداق، فإذا كانت مرغوبًا عنها لقلة المال أو الجمال عزفوا عنها والتمسوا غيرها، فاستفتى

الرسول ﷺ فى ذلك فنزلت هذه الآية . وروى الإمام البخارى فى صحيحه أن النبى ﷺ نهى عن السبع الموبقات، فذكر منها : « أكل مال اليتيم » (البخارى فى الوصايا ٢٧٦٦)، وروى البخارى عن نافع أن عبد الله بن عمر ما رَدَّ على أحد وصية، وأن ابن سيرين كان من أحب الأشياء إليه أن يجتمع إليه نصحاؤه وأولياؤه لينظروا فيما هو خير لمال اليتيم (البخارى فى الوصايا ٢٧٦٧)، وروى أنس رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قدم المدينة وليس له خادم، فانطلق به أبو طلحة (أى انطلق بأنس) إلى رسول الله عليه السلام فبقى معه منذاك، ويضيف أنس : ا »؟

كان الرحمة المهداة، صلى الله عليه وسلم، قدوة فى البر بالي« فخدمته فى السفر والحضر ما قال لى لشيءٍ صنعته لمَ صنعت هذا هكذ تامى ورعايتهم، واعياً من تجربته الشخصية، ومن وصَايا ربه، أن اليتيم هو بالفعل وديعة الله لدى من يكفله ويرعاه .. فقد عانى ﷺ اليتم فى طفولته، رحل والده قبل أن يولد، وتبعته أمه وهو فى السادسة من عمره، فكفله جده عبد المطلب، ولكن سرعان ما توفى بعد سنتين، فانتقل إلى كفالة عمه أبى طالب .. وهو عليه الصلاة والسلام يعى من وصية ربه ما خاطبه سبحانه وتعالى به يوم ضاقت به الدنيا، وتملكه القلق، فتلقى منه قوله عز وجل فى سورة الضحى : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى » ؟! .. حتى إذا ما فرغت الآيات من تذكرته برعاية ربه له فى يتمه وفى هدايته وفى فقره وحاجته، ختمت بأمرها إليه : « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » (الضحى ٩-١١) .

وتلقى عليه الصلاة والسلام من القرآن المكى ما يقرن ازدراء اليتيم - بالتكذيب بالدين، فتقول الآية الكريمة : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ *

فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ». (الماعون ١-٣) . وتلقى من القرآن المدنى فى شأن اليتيم ما ألمنا به من آيات سورة البقرة وسورة النساء، ومن حض متتال على العناية باليتيم والترأف به ورحمته ورعايته والعناية به فى نفسه وماله وفى تربيته وتنشئته، فجمع عليه الصلاة والسلام هذه الخصال فى صورة محببة جاذبة بحديثه الشريف، فقال ﷺ :

« من عال ثلاثة أيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره، وغدا وراح فى سبيل الله، وكنت أنا وهو فى الجنة إخوانًا، كما أن هاتين أختان (وألصق السبابة بالوسطى) » .. تعبيرًا عن أنه إلى جانبه لا يفصل بينهما فى الجنة شىء، فبلغ بهذا الترغيب أعلى المراتب التى يطلبها المؤمن ويتمناها فى آخرته .

ودائع الله* !!!

(٤)

المرأة من ودائع الله التى أوصى بها عباده، وتولاّها الإسلام بالرعاية والعناية والكفالة والحفظ والمساندة .. قد تكون المرأة ملكة، وقد تكون مملوكة، وهى الأم والابنة، والجدة والحفيدة، والزوجة والأخت، وفى كل هذه الأحوال هى من « ودائع الله » لأنها لا تستغنى عن الرعاية والكفالة، ولا عن النظر بعين الاعتبار والتقدير إلى وظيفتها المهمة فى الحياة، وصناعتها للأجيال..

فالابنة فى كنف أبيها، وكذلك الزوجة فى كنف زوجها، وهى أيا كان نصيبها من النجاح تحتاج إلى هذا الكنف .. وترى عين القرآن المجيد عليها، تكلؤها وترعاها، فيقول تبارك وتعالى :

« وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » (النساء ٣٢) .. هذه رعاية ربانية تحمى النساء من طمع الرجال إذا طمعوا، وتعطى للأنثى حقها مثلما يعطى الرجل حقه، دعا إلى ذلك الحرص على الرعاية ـ أن المجتمعات درجت ومن قبل الإسلام على التغول على حقوق

(*) المال ٢٠١٢/١٠/٨

المرأة، واعتبارها متاعًا للرجل، يبنى بمن يشاء منهن بغير حد، وفى سفر الملوك الأول ـ الإصحاح ١١ « فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء والسيدات وثلاثمائة من السرارى . فأمالت النساء قلبه». واعتاد العرب وأد البنات خشية العار أو الإملاق، ضيقًا بهن واستهانة بقدرهن، فيما وصفه القرآن المجيد فقال : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ » (النحل ٥٨، ٥٩) .. اختلت المقاييس حتى تعتبر خطايا الرجال غزوًا وفحولة، بينما هنات النساء عارٌ يُحتاط له بوأد الإناث .

حرص القرآن الحكيم على أن يعيد التوازن والسواء إلى كفتى الميزان، فشف عن فلسفة مؤداها أن الأنثى من ودائع الله، تجب رعايتها ابنة من أبيها، وزوجة من زوجها، وأمًا من أبنائها وبناتها، وأختًا من إخوتها .. وعاملة لها كل حقوق الرجال فى نواتج أعمالهم .. فى العبادات وفى المعاملات، كالرجال سواء بسواء .. يقول الحكم العدل : « أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى » (آل عمران ١٩٥) .. ولها مثل ما للرجل : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » (البقرة ٢٢٨)، وقدمها تقديمًا صريحًا على الرجال، فما تكاد الآية تذكر الإحسان بالوالدين، حتى تخص الأم بالذِّكر، فيقول عزّ وجل: « وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » (الأحقاف ١٥)، ومن مشهور وصايا المصطفى ﷺ فى الحديث : « أمك ثم أمك .. ثم أبوك » .. والدرجة التى أعطاها القرآن للرجال، هى للرعاية والكفالة والعناية ـ لا للتجبر والتحكم والإساءة .. للعدل والإحسان، لا

للظلم والتجبر .. لرعاية حياتها وتقدير حنانها وعطفها ومقابلة برّها ودورها بالحدب عليها . تجد هذه المعانى حاضرة فى وصايا الإسلام للأب والزوج .. وللأبناء والبنات .. خرجت بها رعاية الله من دنيا الرقيق إلى باحة الأم المكرّمة، والزوجة المحفوظة المرعية .. قيد الإسلام تعدد الزوجات ولم يقرره كما يظن البعض، وقد رأينا - برواية العهد القديم - كيف كان لسليمان سبعمائة من الزوجات وثلاثمائة من السرارى، فوضع الإسلام الحدود وشرط الشروط وفى صدرها العدالة، منبها إلى أن العدل بين النساء بعيد وإن حرصنا، فجاء فى الآية الثالثة من سورة النساء : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً » (النساء ٣)، وجاء فى آية أخرى : « وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ » (النساء ١٢٩) . حق الأم على بنيها لا يقل بل يزيد على حق الأب على بنيه، وقال عليه الصلاة والسلام لمن سأله عن حق أبيه وأمه : « هما جنتك ونارك » .. منوّهًا إلى أن الجنة فى رضاهما، والنار جزاء سخطهما .

ترى الحديث النبوى يكرمها كزوجة، فيقول عليه السلام : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرًا من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته - أى حفظته - فى نفسها وماله » .

و روت السيدة عائشة رضى الله عنها، أنها جاءتها امرأة ومعها ابنتان، فلم تجد لديها غير تمرة واحدة، فأعطتها لها، فقسمتها بين ابنتيها، فلما حدثت النبى ﷺ بما كان، قال : « من بلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كنّ له سترًا من النار » .. وفى حديث آخر يقول : « من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة » .

وفيما رواه عنه سعيد الخدرى : « من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو ابنتان أو أختان فأحسن صحبتهن (أى عشرتهن) واتقى الله فيهن فله الجنة ».

ومن اللافت أن الإسلام وهو يحض على العتق للقضاء على الرّق، قد نظر إلى المرأة فرأى أن العتق بلا ضمان قد يقذف بها إلى المجهول، فعمل القرآن المجيد حماية لودائع الله ـ أن ينقل النساء المملوكات من رابطة العبودية إلى رابطة الزوجية، فأمر بالزواج منهنّ وبرهنّ . فقال سبحانه وتعالى : « وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » (النور ٣٢) .. وفضل الجارية المملوكة المؤمنة، على المشركة، فقال عزّ من قائل : « وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ » (البقرة ٢٢١).

الزوجة من ودائع الله لدى زوجها، عليه أن يصونها ويحفظها ويرعاها ويعطيها حقها من التكريم والوفاء . وفى زمن كان ينظر فيه إلى الزوجة كالمتاع، يقول النبى عليه الصلاة والسلام للسائل عن حقها : « أن تطعمها إذا طُعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب ولا تقبح، ولا تهجر إلاّ فى البيت » .. أمر عليه الصلاة والسلام ألا تزوج قهرًا، وأومأ إلى أن البكر سكوتها رضاها، مراعاة لحيائها، وغيرها يجب أن تستأذن وأن توافق صراحة.

روى النسائى وأحمد بسندهما، أن فتاة جاءت إلى النبى ﷺ تشكو له قائلة: «إن أبى قد زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ـ أى عيبه»، فجعل النبى عليه السلام الأمر إليها، تقبل الزواج أم تأباه، فلمّا فعل، قالت : « قد أجزت ما صنع أبى، ولكنى أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء ».

لم يقتصر الإسلام على إنصاف المرأة، وإنما دلت سياسته على أنها من « ودائع الله » ـ مكفولة الرعاية من أبيها، ومن زوجها، ومن بنيها ..

ودائع الله* !!!
(٥)

ليس من الإسلام التناسل بلا مسئولية، وإنجاب الأطفال والقذف بهم إلى المجهول بلا عناية ولا إنفاق ولا تهذيب ولا إصلاح ولا تأديب ولا تربية ولا إعداد لمواجهة الحياة مواجهة ناجحة تحرز نجاحًا للفرد وتقدمًا للمجموع .. ومن يتأمل فى حكمة وفلسفة وسياسة ومبادئ وأحكام الإسلام، يرصد أن صلاح الفرد الإنسانى هدفه وغايته، وأنه اعتبر الضعيف ـ أيًا كان سبب ضعفه ـ من « ودائع الله » الواجب رعايتها والعناية بها .. والوليد إلى أن يكبر ويبلغ أشده من « ودائع الله » لدى أبيه وأمه، ولدى كفيله ووصيه إن لحقه يُتْم، ولدى القيم عليه إن كان وليّه غير صالح للولاية .

ترى هذه العناية، لودائع الله، منذ الحمل وما يستوجبه، ومنذ واقعة الميلاد وما يتلوها من واجبات تضع مسئولية كبيرة على الآباء والأمهات.. الإسلام يتتبع هذه « الودائع » نطفة ثم علقة ثم مضغة، بأن اعتنى بالأسرة التى يتوالد منها ليكون زينة للحياة لا عبئًا ضائعًا مضيّعًا فيها .. فالزواج سكن ومودة ورحمة لتكوين بيئة صالحة، وصلاح الأم لهذه المهمة الجليلة من رضاعة وحضانة وعناية ـ غاية مرعية، يصدق عليها ما رسمه القرآن المجيد :

(*) المال ٢٠١٢/١٠/٩

« فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ » (النساء ٣٤) .. من عناية الإسلام بهذه الودائع أن اهتم بسلامة وصحة محيط تكوين الأجنّة، فلم يترك علاقة الزوجين بلا إرشاد وتوجيه .. من طهارة وسلوك، فنرى فى سورة البقرة : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (البقرة٢٢٢) .

وكما عنى الإسلام بتكوين الجنين، اعتنى بحسن اختيار اسم المولود الذى سيواجه به الدنيا، فجاء فى حديث الرحمة المهداةﷺ: « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءهم » .. ومن حق الولد ـ وهو وديعة الله لدى أبيه وأمه ـ أن يحسنا أدبه وتربيته .. فجاء فى الحديث الشريف:« من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » .. لا يدع الإسلام هذه « الوديعة » نهبًا للعشوائيات أو الإهمال، فعنى بها فى رضاعها وفطامها، فضلًا عن عنايته بالحمل فيها .. ففى آيات الذكر الحكيم : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا » (الأحقاف ١٥) .. وأوصى الأمهات بإتمام الرضاع وعدم تعجيل الفطام، فيقول جلت حكمته : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » (البقرة ٢٣٣) .. وفى سورة لقمان : « وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ » (لقمان ١٤).

يبتعد الناس عن الإسلام حين يتوهّمون أن المباهاة بالتناسل محض مباهاة عددية كمية، وحين يسقطون مسئولية الآباء والأمهات قبل هذه « الودائع » التى استودعها الله لدى كل أب وأم .. فسياسة الإسلام فى الرعاية التى أوجبها إزاء هذه « الودائع » ـ عناية شاملة متكاملة، لا تأتى عفوًا أو نتفًا

متفرقة تخضع للمصادفات، بل هى مسئولية عريضة تتواصل فيها الأجيال .. فأطفال اليوم - ودائع الله - هم آباء وأمهات ثم أجداد وجدات الغد .. وبين هؤلاء وأولاء واجبات متتابعة متلاحقة، فى رعاية متبادلة يبذلها الأبناء والبنات لأمهاتهم وآبائهم حين يشيخون ويهرمون ويحتاجون إلى الرعاية والعناية والحدب والعطف والرعاية، فهو دين مردود، وعطاء متبادل، يعزف فيه هؤلاء وأولاء أنشودة الحياة التى يتغيّاها الأبرار ويبتهلون إلى ربهم أن يمُنّ بها عليهم .. فيهم يقول القرآن المجيد : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » (الفرقان ٧٤) .. ولن تكون العين قريرة إلاّ بالنسل الذى تلقى من فيض العناية والرعاية والتهذيب والتأديب والتربية، ما يجعله قرة عين أبيه وأمه .. هذه الذرية الصالحة التى كانت بأمس « ودائع الله » المرعية فى كنف الآباء والأمهات، هى هى اللبنات الصالحة التى يتواصل عطاؤها ويتحقق بها حديث نبى الرحمة ﷺ: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٌ صالح يدعو له » .

صلاح الأولاد، ودائع الله لدى الآباء والأمهات، ليس ضربة حظ، أو نبت عشواء، وإنما هو حصاد تربية ومجاهدة وتأديب وتهذيب .. وفى الحديث الشريف : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » . هذا التأديب شامل كل ما يتأدب به النشء فى خُلقه ودينه وسلوكه وعلمه .. وفى صحة بدنه ونفسه .. وقد كان النبى ﷺ يوصى فيقول : « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى » ، وفى حديث آخر : « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » ... هذه الودائع تشب على ما تلقته من تربية وتعليم وتوجيه

الآباء والأمهات ، ولذلك رأينا فى الوصايا المحمدية : « ما نحل والد ولدًا من نُحل ، أفضل من أدبٍ حسن » .

عن فهم عميق لهذه الرسالة التى أوصى بها الله تبارك وتعالى فى رعاية هذه الودائع ، أرشد الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم إلى أن الولد يتلقى ينبوع الرحمة من والديه ، مثلما يتلقى أوضار القسوة والجفاء منهما .. فالتربية مسئولية عريضة تشمل النفس والخلق والسلوك .. وقد كان من دعائه ﷺ ووصاياه : « رحم الله والدًا أعان ولده على بره » ... « أعينوا أولادكم على البر » . فالإعانة على البر عطاء مانح ينتقل بالمحاكاة والتأسّى عبر الأجيال ، ولذلك قيل فى الأمثال : « كما تدين تدان» .

روى أن الأقرع بن حابس ، دخل يومًا على النبى ﷺ ، فوجده يقبل حفيده الحسن ، فقال الأقرع مندهشًا : « يا نبى الله ، لى عشر من الولد ما قبلت واحدًا منهم » ! .. فيجيبه الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام : «ولكنا والله نقبل أولادنا .. من لا يَرْحم لا يُرْحم » !

أنت ترى أن رعاية الإسلام الشاملة للإنسان ، قد أفردت عناية خاصة لودائع الله .. لكل ضعيف أو مسكين أو محروم أو محتاج .. لكل من ألمت به نازلة أو أحاق به مكروه أو أصابه العجز أو تداركته الشيخوخة .. ولكنك ترى إلى جانب الرحمة والعناية بالنشء ، رعاية متفطنة لتجدد الحياة وصناعة المستقبل ، فبذلك تمضى الرسالة إلى غايتها ، ويكون الإنسان جديرًا بحمل أمانتها .. تلك الأمانة التى عرضها الحق تبارك وتعالى على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان !! وصدق

الحق عز وجل إذ يأمرنا فى كتابه الحكيم : « فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ » (البقرة ٢٨٣) .